مع غزّة

محمد جديدي

تشابكُ كلّ أشكال النضال والمقاومة

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء. «نضال الفلسطينيّين أيقظ المختنقين بليل الإمبريالية المتوحّشة والداعمة الصهيونية»، يقول الباحث والأكاديمي الجزائري

بطاقة

باحث وأكاديمي جزائري من مواليد بسكرة عام 1962، حاصل على دكتوراه في الفلسفة ويدرّس في «جامعة فسطينة». من مؤلّفاته: «فلسفة الخبرة: جون ديوي نموذجاً» (2004)، و«الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد رورتي» (2008)، و«الفلسفة الأغريقية» (2008)، و«ما بعد الفلسفة: مطارحات رورتية» (2009)، و«ما البيواتيقا؟» (2020)، و«الأفق البيواتيقي» في جزأين (2021، 2022)، ومن ترجماته: «ماكس فيبر ومفارقات العقل الحديث» (2010).

محمد جديدي

فلسطينية. **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوان إبادةٍ على غزّة؟

الهاجس الأوّل الذي يشغلني ويؤرّقني فعلاً هو وقف العدوان الإسرائيلي على غزّة؛ العدوان الذي طالت مدّته ويبدو أنّه ليس كالمرّات السابقة التي حدث فيها أكثر من عدوان. هذه المرّة العدوان مستمرّ لأكثر من ثمانية أشهر في سابقة خطيرة اصطفّ فيها الغرب المؤيّد للكيان وانخرط بسند مادّي لوجستي وبشري وإعلامي في عدوانها وحربها على الشعب الفلسطيني.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

من الصعب التحدّث عن تأثير العدوان في ظلّ استمراره منذ شهور. ومن دون شك أنّ تواطؤ القتل والتهجير والتجويع يحطّم ببطءٍ وتيرة الحياة العادية والهادئة اللازمة كي يعيش المرء حياته اليومية والإبداعية بشكل مستقرّ. مَن يستطيع أن يعيش حياةً عاديةً يطمح فيها لتخصيص وقت للقراءة والكتابة وهو يحيا على وقع أخبار الحرب وويلاتها ومآسيها؟ مَن يقدر على الزعم بمواصلة الحياة بكيفية طبيعية وهو يرى بأمّ عينه وعلى المباشر ما تنقله وسائل الإعلام ووسائل التواصل كلّ دقيقة في حرب غير مسبوقة في التاريخ؟ لذا من الصعب التحدّث عن مدى تأثير العدوان الإسرائيلي على غزّة على الحياة اليومية والإبداعية لأي إنسان، وخاصّة في الجانب النفسي، إذ يُشعرك بدايةً بتفاهة وعبث هذا العالم، ويبعث في النفس شعوراً باليأس والإحباط جرّاء سقوط الإنسانية في غزّة. فما كان يملأ العالم من مبادئ الشرف والسلم والتضامن فقد صلاحيته اليوم على أرض غزّة.

■ إلى أي درجة تشعر بأن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

تكون لكلّ نوع من الأعمال الإبداعية فعالية ونجاعة إذا أمكن لصاحب العمل ابتداءً تجاوُز لحظة الصدمة الأولى المُفضية إلى شلل عن الإبداع، واعتباره شكلاً من أشكال المقاومة، ذلك أنّ مقاومة أيّ احتلالٍ وعدوان لا تكون بالسلاح والكفاح المسلّح فحسب، إنّما تتشابك فيها كلّ أشكال النضال والمقاومة، بكلّ ما يقوم به الإنسان من أفعال الكتابة الإبداعية والترجمة والفنون، وفي كلّ النشاطات الإنسانية والثقافية والرياضية، وكلّ ما من شأنه أن يكشف ويُبرز قبح وبشاعة وهمجية الاحتلال الصهيوني.

■ لو قُيّض لك البدء من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

أرى أنّ العمل الإبداعي سيكون أولويةً إخوانه الفلسطينيّين، وأنا على يقين أنّ الإنسان العربي لم يقُل كلمته الأخيرة باتجاه فلسطين وأهلها.

> الإنسان العربي متعلّق بالقضية وإن كبّلته الأنظمة
>
> رفعتم رؤوس الإنسانية وكنتم قلعتها الأخيرة في وجه الوحشية

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

الإنسان العربي، وإن كبّلته الأنظمة بقيودها وحدودها، فإنّه متعلّق بالقضية الفلسطينية، وقد أبدت الأيام مدى تعلّقه بها، وعليه أن يُبرز ذلك اليوم بمختلف كيفيات التضامن وأشكاله مع إخوانه الفلسطينيّين، وأنا على يقين أنّ الإنسان العربي لم يقُل كلمته الأخيرة باتجاه فلسطين وأهلها.

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان: ماذا تريدين من العالم، أجابت: «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي».. ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟

كم أنتم أبطال من سلالة الأبطال. لقد رفعتم رؤوس الإنسانية وكنتم قلعتها الأخيرة في وجه أعدائها المتوحّشين الجدد. هنيئاً لكم بهذا الشرف والمجد والنصر لكم ولفلسطين كلّها.

وفُضّلاً إذا كان هدفه خدمة قضية عادلة مثل القضية الفلسطينية، ولن يكون في هذا فرقٌ بين عمل سياسي أو نضالي أو إنساني إذا ما توحّدت الجهود من أجل هدفٍ واحد، هو الحفاظ على كرامة الإنسان الفلسطيني. فللسياسي دوره في توجيه بوصلة القضية الفلسطينية داخلياً وخارجياً، وللمناضل أهمّيته في الكفاح ضد الغطرسة الصهيونية، تماماً مثلما أنّ للفاعل الإنساني مكانته في الصراع الدائر على أرض فلسطين. وبالمثل، فإنّ للمبدع، في نصوصه وأشعاره ولوحاته ومقالاته، أهمّية قصوى لدعم السياسي ومساندة المناضل وتعزيز عمل الإنساني، وأخيراً التضامن مع الفلسطيني في محنته.

■ ما هو التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

لا يحضرني في الوقت الراهن سوى تغيير واحد، هو توقّف العدوان الإسرائيلي على غزّة، فتتغيّر وضعية الإنسان الفلسطيني من مضايقَ ومطارَد إلى إنسان حرّ طليقي، قائد لتغيير قادم دشّنه بحسّه الطليعي في إيقاظ المُختنقين والمكتوم على أنفاسهم بليل الإمبريالية والرأسمالية المتوحّشة داعمة الصهيونية، وهو التغيير الذي يشعر به العالم أجمع.

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

قد تكون شخصية حنظلة لناجي العلي وما تمثّله للإنسان الفلسطيني من رمزية النضال والمقاومة وحقّ العودة إلى الأرض. حنظلة وشخصيته رمزٌ لمقاومة الإنسان أينما كان. سأقول له: عُد يا حنظلة، لا تترك الطفل الفلسطيني وحيداً في أرض المعركة. المعركة لا تزال مستمرّة.

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟

أقول لهم أنتم ضمير ما تبقّى من الإنسانيّة وأنتم شرفها. لقد حرصتم على تحرير أنفسكم، ولكن أيضاً على تحرير العالم الذي تهيمن عليه أطراف الأخطبوط الإسرائيلي، وقد فهم العالم هذه الحقيقة. وشدّدوا في مساندتهم ومظاهراتهم للشعب الفلسطيني عامّة، ولأهل غزّة خاصّة، على شكركم؛ لأنّهم أيقظوهم من سباتهم وأعادوا إليهم اعتبارهم للحياة.

إطلالة

في لحظة نهوض لمقاومة الطُّغاة أو الغُزاة

يقظة الرواية

الفنّان الفلسطيني أيمن الحصري يُنجز جدارية بالخطّ العربي على بيت تعرّض للقصف الصهيوني، بيت لاهيا، 17 حزيران/ يونيو 2023 (Getty)

> بدأت الرواية تبتعد عن التاريخ، لكن من غير الواضح تماماً إذا كان للامر علاقة بوعي التاريخ، أم انها ردّة فعل ومجرّد فقدان للقناعات

معدوح عزام

قبل أن ينتصف القرن العشرون كتب جورج أنطونيوس كتاباً سمّاه «يقظة العرب» قدّم فيه آماله، ويقينه أيضاً، من أنّ العرب الذين خرجوا من هيمنة الأتراك، قد دخلوا التاريخ من جديد، وهم يستعدّون كي يأخذوا مكانهم بين شعوب الأرض بهويّتهم العربية الأصيلة. بنى أنطونيوس فكرته التي وضعها في كتاب زادت صفحاته على ستمئة صفحة، على المُعطيات التي كانت تقول إنّ الأحزاب والتيارات والجمعيّات التي كانت قد تشكّلت في الأرض العربية هي التعبير عن تلك اليقظة. وخاصة أنّ كتاب أنطونيوس أُنجز في السنوات التي كانت تشهد نضالاً ثورياً تحرّرياً ضدّ الاستعمازين الفرنسي والإنكليزي اللذين حلّا محلّ الاحتلال التركي. سوف تتكاثر في المناخ الأدبي الروايات التي أطلق عليها اسم الرواية التاريخية، وربما كانت كلّ الروايات التي كُتبت في النصف الثاني من القرن العشرين، وأخذت هذا المنحى، قد استمدّت شرارة من الفكرة الأصل التي وضعها ذلك المؤرّخ.

سوف نقرأ فيما بعد نصوصاً روائية عن التاريخ لطه حسين، ولنجيب محفوظ، ولعبد الحميد جودة السحّار، ولمعروف الأرناؤوط، وعبد الرحمن الشرقاوي، وغيرهم، والملاحظ أنّ معظم الروايات التاريخية كانت تذهب في اتجاه اليقظة، أو في اتجاه البحث عن اللحظات التي كان فيها الشعب ينهض لمقاومة الطُّغاة أو الغُزاة. كان التاريخ في النصّ الإبداعي خزّاناً لأفكار التحرّر والخلاص والانتصار على الأعداء. على أن سنوات السبعينيات من القرن العشرين وما بعد شهدت نكوصاً على صعيد الرأي العام، صار بعض النقّاد يعتبر أنّ العودة إلى التاريخ في الرواية ات تعبيراً عن الهروب من مواجهة الواقع. كان العالم العربي قد بدأ مرحلته «الجديدة» في الانحدار والتحطّم على وقع بنادق هزيمة حزيران/ يونيو 1967، لا فرق بين من خاض المعركة، ومن لم يخُضها، إذ كانت العدوى عربية أيضاً،

> موجة روايات تهرب من واقعها بحثاً عن الفانتازيا في التاريخ

كما كانت مشاعر اليقظة القديمة. ربما كان هذا يفسّر ذلك التأفّف من الرواية التاريخية الذي بدا يظهر في ذلك الوقت. لم تكن ملامح الهزيمة الشاملة قد توضّحت بعد، وكان لدى الجمهور العربي بصيصٌ قليل من الأمل، يُمكن أن يُغذّي عالم الرواية، أو عالم الروائي، وبدا أن بوسع الرواية أن تُساهم في تدارك احتمالات اليأس. غير أنّ الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي العربي كان يتدهور مثل كرة ثلج.

وبسبب الهزائم المُتكرّرة، من جهة، واستيلاء المُستبدّين والعسكر على السُّلطة في معظم الدول العربية بدأت الرواية التاريخية تخلو يوماً بعد يوم من الوقائع ذات الدلالة الثورية. كانت تلك واحدة من العلامات الهامّة عن تأثير الواقع على الرواية. وفي ضوء هذا يُمكن أن تقرأ رواية مثل «الزيني بركات» لجمال الغيطاني في المواجهة مع الهزيمة التي حلّت بالعرب. غير أنّ الرواية بدأت تبتعد عن التاريخ، ومن غير الواضح تماماً حتى اليوم، فيما إذا كان للأمر علاقة بوعي التاريخ، أي أنّ التاريخ يتغيّر في الوعي، استناداً إلى متغيّرات الواقع، أم أنها ردّة فعل مجرّدة من الوعي، أو أنّ الروائي يفقد قناعاته بما كان سلفه يراه. فالعديد من الروايات راحت تبحث عن الفانتازيا في التاريخ، أو تبتعد في سردها عن الموضوعات التي يُمكن أن تكون مُتّصلة بالتعليق على الحدث التاريخي في علاقته مع أحداث الواقع.

(روائي من سورية)

يوميّات

الغريب سجينٌ وإن امتلك جناحَي طير

مصريّين بس!

يعود الإنسان في الحه إلى لُغته الأمّ او اقرب ترجمة لها. الغريبُ يتألّم، و تهرب منه اللّغة، اللّغة مرآة الغربة، عُنصرية بطبعها

أحمد لطفي

قرأتُ اليوم منشورات كثيرة جدًا رافضة لوجود اللّاجئين الأفارقة في مِصر، فتذكّرت يوم انتهيت أوراق تسلُّم العمل بمستشفى القاهرة الجديدة. يومها خرجتُ لأقف تائهًا أمام المستشفى تحت شمس أغسطس لا أدري ماذا أفعل، كيف سأعود إلى بيتي بالشرقية، لا أعرف الطريق ولا المواصلات! قال لي موظّفو المستشفى أن أنتظر ميكروباص الحيّ العاشر عند مكان كذا خارج المستشفى.

ذهبتُ إلى ذلك المكان، فوجدتُ منتظري الميكروباص من جنسيّات إفريقية كثيرة. سُمرة لامعة، أقراط في الأنف، شعر مجعّد، غمغمات وصيّحة على أعيُنهم خوفٌ فِطري لم أستطع تفسيره.

انتظرتُ وسطهم حتى جاء الميكروباص وركبنا واستقرّنا فوق الكراسي وكلّ شيءٍ طبيعي، لكنّ السائق التفت وقال: «مصريّين بس». شعرتُ حينها أنّي في مشهد مسرحي، ظنَنتُه «يهزّر» في البداية، لكن الأفارقة نزلوا من الميكروباص دون جدل ليقفوا تحت الشمس من جديد. وانطلق الميكروباص وأنا فيه أنظر للخلف، أهذا قد حدث حقًا؟ لابدّ أنّ هناك تفسيرًا غير الذي فهمته، ولأن الغريب لا يتكلّم، عُقد لساني.

بعد ذلك اليوم، صرتُ ضيف المدينة في «نوبتجيات» الطوارئ، ليلُها ليلي، وسُكّانها الغرباء مرضاي. غريبٌ يُعالج غريبا. لا تخلو ليلة من إفريقي يُتاتيني ويُتهته لعلّه يُعبّر عن علّته، يقول: «سُنونة» لا «حرارة»، يقول: «راس، ألم» لا «صداع»، ويتلوّى مُنتفخًا على كبده، ولا يقول ألم. يعود الإنسان في الحه للغته الأمّ أو أقرب ترجمة لها. الغريب يتألّم، وتهرب منه اللغة، اللغة مرآة الغربة، عنصرية بطبعها.

أشعر بمسؤولية تجاههم فوق المسؤولية الطبّية. أقف بجوارهم ترجمانًا، أتأكّد من كلّ ممارسات التمريض تجاههم، ولا أطرد عن وجهي الابتسام. إني أنا أخوك فلا تبتئس. أيّ خطأ مني سيُخيفهم. الغريب يخاف من العبوس. كلّ عبوس هو احتمال غدر.

في ليلة من الليالي، سمعتُ صراخًا نحيلًا، صوتٌ حادّ كأنه من جرس أو مزمار. كنتُ جالسًا حينها في غرفة الطوارئ مُنتظرًا الطفل القادم، لكنّ الصوت الذي سمعتُه ليس صوت طفل. أردتُ معرفة مصدره، خاصة حين اشتدّ وبانت لغة الصارخ، أعجميٌّ يُغمغم بلكنة إفريقية. أخذني الفضول فاتّجهت ناحيته، صوته قادم من ناحية غرفة أشعّة «السونار».

اقتربتُ من الصوت حتى رأيته في الطُّرقة، شابًا لا يزيد عُمره على العشرين. منتبذًا على كبده واضعًا يده على جنبه الأيمن، يبدو مريضَ التهاب زائدة حادّ. تأكّدت من ذلك، إذ كان حوله طبيب الأشعة والتمريض يحاولان إقناعه بإجراء أشعّة «السونار»، وهو يتحامل على نفسه، يُريد تَرْك المستشفى لأنه يظنّ أنهم يريدون فَتْح بطنه وسرقة أعضائه. كان يدفعُنا بيد، ويضع الأخرى على جنبه الصارخ.

> نزلوا من الميكروباص دون جدَل ليقفوا تحت الشمس من جديد

«حاملا الأرض» شوكي، للتشكيلي السوداني صلاح المرّ، أكريليك على قماش، (2017)

بيبكي، كان يبكي، يقول وسط غمغماته: «لأ، لأ».

حاولتُ أن أقنعه معهم، جلستُ جواره وأحطت كتفه بيدي. ارتعد وابتعدني. ذكّرني بلوحة إيفان الرهيب للرسّام الروسي إيلي ريبين، عيونه جاحظة، وأنفه.. أين أنفه؟ انتبهتُ لموضع أنفه الفارغ، مكسورٌ تظهرُ فتحتا منخاره من الأمام بلا غضروف، هذا غير آثار جروح قديمة في وجهه، جروح متعرّجة بطول وجهه. عنده حقّ ليخاف. لكن المهمّ أنه وافق أخيرًا على إجراء «السونار». الغريب خائف، الغريب مستباح.

في ليلة أخرى، جاءتنا طفلة مُرتخية الجسد وعينها مُتارجح بين إغماءة وإفاقة. لم يُخبرنا الأب إلا بأنّها وقعت على رأسها، وعيناها نظرتا للأعلى وأطرافها اهتزّت. كانت أمّها تبكي وتصرخ بكلمات ما بين الإنكليزية ولُغة إفريقية، لم أفهم من كلامها سوى كلمة: «جِن، جِن».

كانت حالة البنت مستقرّة، كلّ علاماتها الحيوية طبيعية. بدت في مرحلة ما بعد التشنّجات، لا تحتاج سوى متابعة وإجراء أشعّة.

كتبتُ لها طلب الأشعّة، فثارت الأمّ في المستشفى كلّها، كانت تصرخ بالإنكليزية: «ستقتلونها، ستقتلونها».

وقفتُ أمامها محاولًا شرح حالتها، تشنّجات، فيتس، كونفالغنز، سيغرز، ما الكلمة التي سيفهمونها؟ الغريب سجينٌ وإن امتلك جناحَي طير.

اقتنعوا بالأشعّة، ناداني طبيب الأشعّة بعد دقيقتين، لم يكتب تقريرًا، أراد أن يُريني الأشعّة نفسها، فبدماغ البنت كتلة، كُرة، مصيبة ستغيّر حياتها. قلت له ساخرًا: «كتلة أوسخ من الجنّ».

لا أعلم لماذا تذكّرت أن الجنّ آمن بالنبي في طريق عودته من غُربة الطائف. الجنّ يرأف بالغريب، المرض لا يفعل.

وأخيرًا، كنتُ اليوم في «نوبتجية»، وكان معي - ككلّ نوبتجية - مريضٌ إفريقي. لكنّه لم يتأخّر في المرض، تحسّن في العلاج بسُرعة وخرج معي من باب المستشفى لينتظر الميكروباص القادم الذي ركبناه معًا. قال السائق الصعيدي بعدما ركبنا: «مصريّين بس!». فنزلتُ من الميكروباص، لأقف مع الإفريقي وسط هواء الربيع الذي يهيّج جيوبي الأنفية، لكن بعيون مُبتسمة، فالغريب يبحث عن وطنه، في عيون الناس.

(قاصّ وطبيب أطفال مصري من مواليد عام 1996. له مجموعتان قصصيّتان «الوحل والنجوم» (2022)، و«رأيتُ البحر» الصادرة هذا العام)

فعاليات

تُعقد عند الخامسة من مساء الأربعاء المقبل في مكتبة «متحف الفنّ الإسلامي» بالدوحة جلسة لقراءة كتاب **الفنّ الإسلامي والمتحف** للباحث **بينوا جونو**. يتضمّن الكتاب تحليلاً تاريخياً ومفاهيمياً للفنّ الإسلامي عبر استخدام مناهج اجتماعية تاريخية وأنثروبولوجية، بعيداً عن اختزاله بعناصر بصرية وجمالية.

حتى الرابع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر المقبل، يتواصل في «موزاييك روموز» بلندن معرض **كوكبات الأمنيات المتعدّدة.. على امتداد أفق الشرف** الذي افتتح أمس. يضمّ المعرض أرشيف المجموعات الفنية لحركة عدم الانحياز، بالإضافة الى مختارات من مشروع «ملصق فلسطين حرّة»، وهو أرشيف لأعمال فنّانين من مختلف بلدان العالم نُشر على منصّة رقمية تحمل الاسم نفسه.

تُختتم مساء غدٍ السبت فعاليات الدورة التاسعة من **الصالون الدولي للكتاب** في مدينة سوسة التونسية التي انطلقت في السادس عشر من الشهر الجاري. يشارك في التظاهرة أكثر من مئة دار نشر عربية وأجنبية، وتتضمّن قراءات شعرية، وإشهار إصدارات جديدة، وندوات وورش تدريبية، الى جانب فعاليات الطفل.

يُعرض عند السابعة من مساء الجمعة المقبل في «مسرح سرد» بمدينة حيفا المحتلّة فيلم **حمّى البحر المتوسط** (2022) للمخرجة الفلسطينية **مها الحاج**. يعقب الفيلم الذي يتناول حياة شخص في منتصف العمر يعيش في حيفا ويحاول أن يكتب روايته الأولى، حوارٌ مع المخرجة يديره الباحث **هشام روحانا**.